كلية الآداب في جامعة النجاح الوطنية – فلسطين

المؤتمر العلمي الدولي "ابن خلدون: علامّة الشرق والغرب"

أكتوبر– تشرين الأول 2012.

عنوان المداخلة:

الاكتساب اللغوي وقضاياه عند ابن خلدون.

إعداد:أ. **طارق ثابت.**

جامعة الشهيد محمد العربي بن مهيدي–أم البواقي/الجزائر

الملخّص:

تتدخل اللغة والثقافة في عملية التنشئة الاجتماعية للفرد باعتبارهما ضابطين أو قانونين يأتيان لتأطير الفرد ومنحه في المقابل هوية تُدْرَكُ بعبارات التماهي مع الوسط الذي يَقبل هذا الفرد لغته واستعمالاتها؛ فاللغة هي القانون الأول الذي يفرض نفسه على كل فرد خلال عملية التنشئة الاجتماعية وقد لقيت دراسة اكتساب اللغة اهتماماً كبيراً على أثر ظهور النظرية السلوكية في علم النفس والنظرية البنيوية في علم اللغة، ومن ثم ظهور نظرية النحو التحويلي والتوليدي على يد عالم اللغة الأمريكي نعوم تشومسكي؛ لكن قبل ظهور هذه النظريات تناول ابن خلدون قضية اكتساب اللغة من منطلق ثابت مفاده أن اللغة ملكة طبيعية، يكتسبها الإنسان، ومن هنا سوف تحاول هذه الورقة تتبع جهود ابن خلدون في هذا المجال من خلال البحث في نظرية اكتساب اللغة ، والتدرج في التعليم وقضايا التمرين والتحصيل اللغوي وغيرها؛ المبثوثة هنا وهناك في ثنايا مقدمة كتابه العبر.

المداخلة:

أولا- مقدمة عامة:منذ منتصف القرن العشرين ودراسة اكتساب اللغة تلقى اهتماماً كبيراً؛ على أثر ظهور النظرية السلوكية في علم النفس والنظرية البنيوية في علم اللغة، ومن ثم ظهور نظرية النحو التحويلي والتوليدي على يد عالم اللغة الأمريكي (نعوم تشومسكي)، وهكذا وجد علماء النفس وعلماء اللغة نقطة تقاطع تولد عنها حقل حديث هو علم اللغة النفسي الذي جعل من دراسة اكتساب اللغة أحد أبرز اهتماماته، وبذلك أتاح هذا العلم الفرصة لدراسة وبحث اكتساب اللغة الأولى عند الأطفال واللغة الثانية أو الأجنبية لدى الكبار والأطفال معاً، وتوسعت وتفرعت دراسة اكتساب اللغة لكي تشمل تطور ونمو اكتساب العناصر اللغوية المختلفة في جوانبها الصوتية والصرفية والنحوية والدلالية والتواصلية، وللعلامة ابن خلدون[1] آراء قيمة في النحو وتعليم اللغة والأدب وردت في كتابه الشهير المعروف باسم (مقدمة ابن خلدون) ، وهي آراء تمثل فكراً عميقاً في بابه، يستحق أن يقف عنده الباحثون في هذا المجال؛ وذلك لأنها آراء تفسر لنا غير قليل من قضايا اللغة والأدب في المجتمع العربي خاصة، والإنساني عامة .

واللغة هي وعاء الثقافة، وأداة الاتصال بين الماضي والحاضر ولا يستطيع الإنسان مهما كان أن يقف على كنوز الفكر الإنساني من تاريخ وشعر ونثر، بل لا يستطيع أن يقيم حتى

[1]هو عبد الرحمن بن محمد بن محمد, ابن خلدون أبو زيد، ولي الدين الحضرمي الإشبيلي، الفيلسوف العالم الاجتماعي، أصله من إشبيلية، مولده بتونس ونشأته بالجزائر، اشتهر بكتابه العبر وديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والعجم والبربر، في سبعة مجلدات؛ أولها المقدمة وهي تعد من أصول علم الاجتماع، وألّف المقدمة وكتاب العبر في ثماني سنوات وهو مقيم بقلعة ابن سلامة قرب تلمسان بالجزائر، وقد ترجمت إلى لغات كثيرة، وكانت ولادته في تونس غرة رمضان 732هـ الموافق 27 ما ي 1332م ، وتوفي في 26 رمضان سنة 808هـ الموافق 16 مارس 1406م وسنه 76 سنة, ودفن خارج باب النصر بمقبرة الصوفية في القاهرة، تنقل كثيراً بين الأندلس والمغرب ومصر وغيرها، ينظر: محمد عنان، ابن خلدون حياته وتراثه الفكري، القاهرة، مطبعة دار الكتب المصرية،1933.

شعائر دينه وأمور دنياه بدون اللغة، أما **مفهوم اللغة في اللسانيات الحديثة فهو: " نظام معقد من** العلامات، يحقق وظيفة أساسية هي التواصل "[2] أو هي " قدرة ذهنية مكتسبة يمثلها نسق يتكون من رموز اعتباطية منطوقة يتواصل بها أفراد مجتمع ما "[3]، و إن أهم ما يميز اللغة البشرية هو: اعتباطية العلاقة بين الدال و المدلول مما يفسر لنا تعدد الألسن، إضافة إلى قدرتها التوليدية مما يجعل من اللغة لانهائية. أما فيما يتعلق بوظائف اللغة فأهمها[4]:

1-الوظيفة الاتصالية.

2-الوظيفة المعرفية.

3-الوظيفة الوجدانية.

4-الوظيفة الجمالية.

5-الوظيفة الانفعالية.

فاللغة بهذا لها أهمية كبرى، ولها وظائف للفرد، ووظائف للمجتمع؛ فوظائفها بالنسبة للفرد نذكر منها[5] :

1-أنها وسيلة اتصاله بغيره لقضاء حاجاته .

2-هي وسيلة للتعبير عن آلامه وآماله .

3-هي وسيلة للإقناع في مجال المناقشة .

4-هي وسيلة للاستفادة من تجارب الآخرين بالقراءة وغيرها.

---

[2]أحمد محمد المعتوق، الحصيلة اللغوية، سلسلة عالم المعرفة 212، الكويت، آب ،.1996، ص58.

[3]عبد الصبور شاهين، في علم اللغة العام، ط3 ، 1980 ، مؤسسة الرسالة بيروت، ص 39.

[4] عبد الجليل مرتاض، اللغة والتواصل اقترابات لسانية للتواصلين الشفهي والكتابي، دار هومة، الجزائر ص49 .

[5] محمود السمان، التوجيه في تدريس العربية، دار المعارف، القاهرة، 1983م، ص 35 .

5-مهمة جداً في مجال التفكير .

أما وظيفة اللغة بالنسبة للمجتمع[6] فهناك العديد من الوظائف مثل :

1-تحفظ التراث الثقافي والتقاليد الاجتماعية جيلاً بعد جيل .

2-تجعل للمعارف والأفكار البشرية قيماً اجتماعية بسبب استخدام المجتمع للغة؛ للدلالة على معارفه وأفكاره.

وباختصار يتضح لنا أن اللغة هي قوام الأمة، وقوام كيانها التاريخي والثقافي والحضاري، فهي العنصر الأساسي في التكوين القومي للشعوب؛ إذ ليست اللغة أداة للتخاطب فحسب، بل وعاء يحمل في طياته الفكر نفسه، ولغة كل أمة هو لسان حالها الذي يعبر عن ألامها وآمالها، وبواسطتها تحفظ تراثها الفكري والثقافي والعلمي والحضاري، كي ينقل من جيل إلى آخر؛ حيث تقاس حضارة أمة من الأمم بكم التراث العلمي والفني والأخلاقي المدون بلغتها، كما تضطلع اللغة بدور رئيس في عمليتي التنمية الحضارية والتبادل الثقافي، لا لكونها أداة تواصل واتصال نعبر بها عن المفاهيم والأفكار والتصورات والقيم، ونحفظ بها التراث الفكري والثقافي والعلمي فحسب؛ بل بوصفها أحد العناصر الجوهرية من العناصر المكونة للثقافة والفكر؛ تتجاوز أهميتها من التعبير والحفظ إلى التغيير أيضا، ولا تقل أهمية اللغة في الدراسات التاريخية أيضا، فهي مفتاح معرفة الحوادث والوقائع والانجازات المدونة في الوثائق؛ حيث تعتبر اللغة الوسيلة التي اعتمدها الإنسان في تدوين الأخبار والانجازات المختلفة، فالوثائق التي تعتبر الركيزة الأساسية في المعرفة التاريخية، سواء كانت هذه الوثائق مدونة على الجدران أم على أوراق أم على ألواح أم على جلود حيوانات وغيرها، تعتمد في أغلب الحالات بما تحتويه من معلومات وصور ومخططات وأشكال على اللغة

[6]إبراهيم عطا، طرق تدريس اللغة العربية، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، 1407هـ، ص 35 .

وكيفية استعمالها في التعبير عن الحوادث والحالات، فتحفظ المندثر وتدعم الباقي بالشاهد اللغوي.

ثانيا: تعليم اللغة عند ابن خلدون:إن تعلم أي لغة يعني اكتسابها، وهذا الاكتساب من أهم القضايا التي تناولتها المدارس اللغوية المعاصرة، وتراث الفكر اللغوي العربي يفيض بالعلماء والمفكرين الذين نظروا في هذه القضية وأسهموا في بحثها وكانت لهم في ذلك نظرات ثاقبة، وابن خلدون من أحد هؤلاء العلماء الذين أدلوا برأيهم في قضية اكتساب اللغة وتعلمها.

وقد انطلق ابن خلدون في حديثه عن اكتساب اللغة من قاعدة عنده تقول" إلا أنَّ اللغات لما كانت ملكات كما مر، كان تعلمها ممكناً شأن سائر الملكات"[7] ، فاللغة بهذا عبارة عن ميزة أو صفة إنسانية يكتسبها الإنسان بشكل متدرج غير مقصود، فتبدو هذه المقدرة وكأنها طبيعة وفطرة، وهو بذلك يرفض الآراء القائلة بأنَّ متحدثي اللغة ذوي اللغة السليمة الفصيحة إنما يتحدثون بها بالفطرة وحدها، وأن لا جدوى من محاولة محاكاتهم، يقول في المقدمة " فإن الملكات إذا استقرت ورسخت في محالها ظهرت كأنها طبيعة وجبلة لذلك المحل، ولذلك يظن كثير من المغفلين ممن لم يعرف شأن الملكات أن الصواب للعرب في لغتهم إعراباً وبلاغة أمر طبيعي"[8]

وابن خلدون بتأكيده على أن الملكة اللسانية مكتسبة يميز بين نوعين من عمليات الاكتساب اللغوي: الاكتساب من خلال الترعرع في البيئة وسماع لغتها، والاكتساب أو التعلم بواسطة الحفظ والمران، وهو في هذا يصوّر اللغة على أنها ملكة، و يقسم ظواهر تعليم ملكة اللغة إلى ثلاثة أنواع : ظواهر قاعدية وظواهر نفسية، وظواهر اجتماعية[9]، يقول ابن خلدون:"

---

[7]عبد الرحمن بن خلدون، مقدمة ابن خلدون، دار الفكر، بيروت ط1، 2004، ص607.

[8]عبد الرحمن بن خلدون، مقدمة ابن خلدون، ص609.

[9] ينظر في هذا: ميشال زكريا، المَلكة اللسانية في مقدمة ابن خلدون، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر ، بيروت، 1986.

اعلم أن اللغة في المتعارف هي عبارة المتكلم عن مقصوده، وتلك العبارة فعل لساني ناشئ عن القصد بإفادة الكلام، فلا بد أن تصير ملكة متقررة في العضو الفاعل لها، وهو اللسان، وهو في كل أمة بحسب اصطلاحاتهم" [10]، ويقول أيضا:" اعلم أن اللغات كلها ملكات شبيهة بالصناعة، إذ هي ملكات في اللسان، للعبارة عن المعاني وجودتها ومقصورها بحسب تمام الملكة أو انفصالها، وليس ذلك بالنظر إلى المفردات، وإما هو بالنظر إلى التراكيب"[11]، ويضيف إلى هذا بتوضيح معناها بالمقارنة يقول :" فلغة أهل قريش مباينة بعض الشيء للغة أهل المغرب، وكذا أهل الأندلس معهما، وكل منهما متوصل بلغته إلى تأدية مقصوده والإبانة عمّا في نفسه، وهذا معنى اللسان واللغة"[12] ويبدو من كلامه هنا أنه يميز بين اللسان واللغة؛ فيعني باللغة اللهجات المتفرعة عن اللغة الأم، وباللسان اللغة التي تميز الأمم عن بعضهم.

وأهم نقطة يشير إليها ابن خلدون في المقدمة؛ بل ويؤكد عليها هي أهمية اللغة في تحصيل العلوم، يقول:" ...وصارت العلوم الشرعية كلها ملكات في الاستنباط والاستخراج والتنظير والقياس، واحتاجت إلى علوم أخرى هي وسائل لها: من معرفة قوانين العربية، وقوانين ذلك الاستنباط والقياس"[13]، ويقول أيضا: "واللغات: إنما هي ترجمان عما في الضمائر من تلك المعاني يؤديها بعض إلى بعض بالمشافهة في المناظرة والتعليم، وممارسة البحث بالعلوم لتحصيل ملكتها بطول المران على ذلك"[14] ، وقد قدم ابن خلدون منهجا متميزا في تعليم اللغة، تناوله كثير من الباحثين والدارسين نلخصه في ما يلي:

---

[10]عبد الرحمن بن خلدون، مقدمة ابن خلدون، ص623.

[11]المصدر السابق، ص630.

[12]نفسه ، ص630.

[13]محمد عيد، الملكة اللسانية في نظر ابن خلدون، عالم الكتب ، القاهرة ، 1979، ص147.

[14]عبد الرحمن بن خلدون، مقدمة ابن خلدون ، ص631.

أ-**التدرج في التعليم:** إن التدرج في تعليم اللغة أمر طبيعي يتماشى مع طبيعة الاكتساب اللغوي نفسه، لذلك لزم أخذ هذا العامل بعين الاعتبار مع مراعاة السهولة، والانتقال من العام إلى الخاص وتواتر المفردات، وقد أشار ابن خلدون إلى ذلك بقوله :" اعلم أن تلقين العلوم للمتعلمين إنما يكون مفيدا إذا كان على التدريج شيئا فشيئا، وقليلا قليلا، يلقى عليه أولا المسائل من كل باب من الفن هي أصول ذلك الباب، ويقرب له في شرحها على سبيل الإجمال"[15]؛ وهو يعني بهذا أن يكون كل علم تمهيدا لما سيأتي بعده، يقول: " ثم يرجع به إلى الفن ثانية فيرفعه في التلقين عن تلك الرتبة إلى أعلى منها، ويستوفي الشرح والبيان، ويخرج عن الإجمال،... إلى أن ينتهي إلى آخر الفن فتجود ملكته، ثم يرجع به وقد شدا فلا يترك عويصا ولا مبهما ولا متعلقا إلا وضحه وفتح له مقفله، فيخلص من الفن وقد استوفى على ملكته."[16]، ولذا ينصح بوجوب البدء من العموميات وصولا إلى الجزئيات، مثلما تنصح بذلك نظريات التعلم الحديثة[17]؛ التي تعد المدخل الهرمي كما يسمى من أبرز وأهم مداخل تنظيم المحتوى؛ حيث يتم تنظيم محتوى المقرر على شكل هرمي تدريجي يبدأ بالمستوى الأبسط إلى الأكثر تركيبا وتعقيدا .

ب-**مراعاة السن وعامل الاستعداد:** انتبه ابن خلدون إلى أهمية النمو العقل في تسهيل عملية التعلم؛ لذا عدّه أحد عوامل التعلم التي لا استغناء عنها في تأهيل المتعلم لعملية التعلم، كالنمو الجسدي والنفسي يقول:" ويراعى في ذلك قوة عقله واستعداده لقبول ما يرد عليه"[18]، ويقول في موضع آخر:" وإذا ألقيت عليه الغايات في البدايات وهو حينئذ عاجز عن الفهم والوعي وبعيد عن الاستعداد له كل ذهنه عنها، وحسب ذلك من صعوبة العلم في

---

[15]عبد الرحمن ابن خلدون ، المقدمة ، ص 605

[16]المصدر السابق، ص 606.

[17]فتحي يونس وآخرون،المناهج،الأسس،المكونات التنظيمات التطوير، دار الفكر،الأردن،2004م، ص103.

[18]عبد الرحمن ابن خلدون ، المقدمة، ص 605.

نفسه تتكاسل عنه وانحرف عن قبوله وتمادى في هجرانه وإنما ذلك من سوء التعليم"[19]، وكلام ابن خلدون هذا يتوافق مع ما قاله علماء اللغة الغربيون؛ مثل(مارك ريشل) الذي يقول:" تستلزم اللغة الإنسانية أعضاء طرفية ملائمة وجهازا عصبيا ملائما، إن الأساس الذي يجيز اكتساب اللغة لا يعمل منذ الولادة، كما أنه لا يبقى على الدرجة نفسها طوال حياة الفرد[20] "، وبهذا يتضح لنا أن صاحب اللغة المعينة إذا أراد أن يتعلم لغة أخرى فإن اكتسابه للغة الأخرى لا يمكن أن يكون تاماً ولا يمكن أن تكون إجادته لها كإجادة أبناء اللغة الأصليين ؛ لأن التداخل بين اللغة الأم واللغة الثانية يعوق ذلك، وهذا المقصود بمراعاة عامل السن في تلقين اللغة.

ج- عدم التطويل على المتعلم في الفن الواحد، والاكتفاء بتعليم علم واحد في كل مرة: إن التطويل والمبالغة في مسألة من مسائل تعليم اللغة يُعده ابن خلدون عيبا ينتج عنه تقطيع المجالس وتفريق ما بينها، الشيء الذي يُغلِّب النسيان، و يعمل على انقطاع مسائل الفن عن بعضها؛ فيصعب معه التحصيل، يقول:" وإذا كانت أوائل العلم ، وأواخره حاضرة عند الفكرة مجانبة للنسيان كانت الملكة أيسر حصولا، وأحكم ارتباطا، وأقرب صنعة لأن الملكات إنما تحصل بتتابع الفعل وتكراره، وإذا تونسي الفعل تنوسيت الملكة الناشئة عنه"[21]، وأيضا من مستلزمات العملية التعليمية عند ابن خلدون الاكتفاء بعلم واحد في كل مرة، يقول: " ولا ينبغي للمعلم أن يزيد متعلمه على فهم كتابه الذي أكب على التعليم منه بحسب طاقته... ولا يخلط مسائل الكتاب بغيرها حتى يعيه من أوله إلى آخره، ويحصل أغراضه ويستولي منه

---

[19]عبد الرحمن ابن خلدون ، المقدمة ، ص 606.

[20]مارك ريشل ، اكتساب اللغة، ترجمة: كمال بكداش، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع ، بيروت لبنان، 1984م ، ط1، ص 53.

[21]عبد الرحمن ابن خلدون ، المقدمة ، ص 606.

على ملكة بها ينفذ في غيره"[22] ، فتكون العلوم خادمة لبعضها البعض، ودرجا يرتقي بها المتعلم من علم إلى علم، فتكون كالملزمة لبعضها البعض كالقرآن الملزم لتعلم العربية، يقول:" لأن المتعلم إذا حصَّل ملكة ما في علم من العلوم استعدّ بها لقبول ما بقي، وحصل له نشاط في طلب المزيد والنهوض إلى ما فوق ، حتى يستولي على غايات العلم"[23] وكل خلط يؤدي إلى العجز عن الفهم، والتعب، والفتور واليأس عن التحصيل، وهجر العلم والتعليم.

د- الانتقال من المحسوس إلى المجرد و تقديم البسيط على المركب والمعقد:إن إشراك الحواس في عملية التعليم أمر لازم ، يساعد المتعلم على إدراك المواضيع التي يهدف تعليمها له بصورة أكثر وضوحا لأن ما يقع تحت حواسه يكون أكثر قابلية للإدراك فيسهل تعلمه ومعرفته، لأن أول اتصال يقوم به الطفل مع العالم الخارجي هو اتصال مادي وسائله الحواس الخمسة. لذا فلا غرابة في أن يدعو ابن خلدون إلى الاهتمام بهذا الجانب من الاتصال الذي يمكن المتعلم من مواضيع تعلمه لذا يقول:" والأحوال المحسوسة، نقلها بالمباشرة أوعب لها وأكمل؛ لأن المباشرة في الأحوال الجسمانية المحسوسة أتم فائدة، والملكة صفة راسخة تحصل عن استعمال ذلك الفعل وتكرر، مرة بعد أخرى، حتى ترسخ صورته ، وعلى نسبة الأصل تكون الملكة، ونقل المعاينة أوعب وأتم من نقل الخبر والعلم ، فالملكة الحاصلة عنه أكمل وأرسخ من الملكة الحاصلة على الخبر"[24]، ثم إن طبيعة التطور تقتضي التدرج، وقد يكون من المحسوس إلى المجرد، ومن العام إلى الخاص ، كما قد يكون من البسط إلى المعقد وفي هذا يقول ابن خلدون:" ثم إن الصنائع منها البسيط ومنها المركب، والبسيط هو الذي يختص بالضروريات، والمركب الذي للكماليات، والمتقدم منها في التعليم

---

[22]عبد الرحمن ابن خلدون ، المقدمة ، ص 606.

[23]المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

[24]عبد الرحمن ابن خلدون ، المقدمة ، ص 671.

هو البسيط لبساطته أولا، ولأنه مختص بالضروري الذي تتوفر الدواعي على نقله، فيكون سابقا في التعليم ويكون تعليمه لذلك ناقصا، ولا يزال الفكر يخرج أصنافها ومركباتها من القوة إلى الفعل بالاستنباط شيئا فشيئا على التدريج حتى تكمل"[25] ، ومن هنا نستنتج أن ابن خلدون يقرر أن العقل الإنساني يشوبه القصور، وأن مراتبه تختلف باختلاف البشر، وخاصة في المراحل الأولى من حياة الإنسان، وقد ذكر أن عقل الإنسان لا يستطيع أن يستوعب العلوم التي تكثر فيها المصطلحات فيجب تبسيطها، وابن خلدون يهدف إلى التيسير على المتعلم وبالخصوص في بداية عهد الطالب بالتعليم.

هـ- الاستعانة بكثرة التمارين: أما التمرين اللغوي في عملية تعليم اللغات فيعد مقوما هاما، لهذا اهتم الباحثون في الميدان اللساني والتربوي بالتمرين اللغوي وبضرورة ترقيته، وتحديد أهدافه التعليمية، ، وضبط إجراءاته المختلفة لتذليل الصعوبات التي تعترض المتعلم، وتفادي الخطأ اللغوي الذي يشكل عائقا أمام تطور العملية التحصيلية في مجال تعليم اللغات[26]، يقول ابن خلدون في هذا:" الدؤوب على التعليم والمران على اللغة، وممارسة الخط يقضيان بصاحبهما إلى تمكن الملكة"[27] ، واكتساب اللغة عن طريق الحفظ للجيد للنصوص والتمرّن والاستعمال، اكتساب تعلميّ يحدث بقصد؛ وهذا هو معنى كلام ابن خلدون؛ لأن طريق اكتساب الملكة وتعلم اللغة يبدأ بالتعامل مع مختارات لغوية متميزة تحفظ بعد أن تُقرأ جيداً وتسمع، ويُكثر من استعمال ذلك وبذلك يتم تعلم اللغة.

ثالثا: اكتساب اللغة وأراء ابن خلدون فيها: تناول إن ابن خلدون قضية اكتساب اللغة من منطلق ثابت مفاده أن اللغة ملكة طبيعية، يكتسبها الإنسان حيث يقول " إلا أن اللغات لما

---

[25]عبد الرحمن ابن خلدون ، المقدمة ، ص671.

[26]أحمد حساني، دراسات في اللسانيات التطبيقية: حقل تعليمية اللغات، الديوان الوطني للمطبوعات الجامعية، الجزائر ، ص 147.

[27]عبد الرحمن ابن خلدون ، المقدمة ، ص 620.

كانت ملكات كما مرّ، كان تعلمها ممكناً شأن سائر الملكات "[28]، ويذكر ابن خلدون أيضاً أن:" الملكات كلها جسمانية، سواء كانت في البدن أو في الدماغ، من الفكر وغيره، كالحساب، والجسمانيات كلها محسوسة فتفتقر إلى التعليم"[29]، ويقترب ابن خلدون في هذا الرأي من رأي تشومسكي الذي ذكر أيضاً أن اللغة ملكة موجودة في الدماغ حيث يقول:"الدراسة المجردة لحالات ملكة اللغة يجب أن تصوغ خواص تقوم بشرحها نظرية الدماغ"[30] ، ويتفق تشومسكي مع ابن خلدون أيضاً في أن اللغة تكتسب، وذلك عندما قال تشومسكي بأن الطفل يولد دون لغة محددة بعينها وسمى هذه الحالة بالحالة الصفرية الأولى ؛ لكن الطفل يمتلك نحواً كونياً أو كلياً يساعده على تعلم أي لغة يتعرض لها بعد ذلك ينتقل الطفل وهو يكبر، ومن خلال سلسلة من المراحل المتتابعة إلى مرحلة الاستقرار[31] ، أما ما ذكره ابن خلدون من حيث إن اللغة ملكة جسمانية فإنه لا يختلف عما ذكره تشومسكي من أن اللغة ذات أصول بيولوجية ، يقول" إن دراسة الأسس البيولوجية لقدرات الإنسان اللغوية قد تثبت أنها أحد أعظم المشارف الموجودة للعلم في السنين القادمة.

إن ابن خلدون يشير في أراه المبثوثة في مقدمته إلى حتمية وجود قوة كامنة للغة في جسد الإنسان ونفسه، ولكن تلك القوة تحتاج إلى التعليم من خلال تجديد العلوم والإدراكات عن المحسوسات؛ يقول: "والجسمانيات كلها محسوسة فتفتقر إلى التعليم"، وقوله كذلك "قد ذكرنا في الكتاب أن النفس الناطقة، للإنسان، إنما توجد فيه بالقوة. وأن خروجها من القوة إلى الفعل، إنما هو بتجدد العلوم والإدراكات عن المحسوسات.."[32]، وبالمثل يقول تشومسكي إن

---

[28]عبد الرحمن ابن خلدون ، المقدمة ، ص 630.

[29]المصدر نفسه، ص 638.

[30]محمد عيد، الملكة اللسانية في نظر ابن خلدون، عالم الكتب ، القاهرة ، 1979، ص132.

[31] المصدر السابق، ص136.

[32] عبد الرحمن ابن خلدون ، المقدمة ، ص767.

الطفل يمتلك خواص فطرية للغة تفسر مقدرته على اكتساب لغته الأم خلال وقت قصير، رغم الطبيعة التجريدية العالية لقواعد اللغة وأن هذه الصفات عبارة عن أداة سماها (أداة اكتساب اللغة) ولكنه فيما بعد سماها (النحو الكلي) الذي يحتوي على قواعد موجودة في جميع لغات العالم[33].

من ناحية أخرى نجد أن ابن خلدون قد تنبه للفرق بين الملكة اللغوية وصناعة اللغة العربية حيث يقول "من هنا يعلم أن تلك الملكة هي غير صناعة العربية، وأنها مستغنية عنها بالجملة.. ذلك أن صناعة العربية هي معرفة قوانين هذه الملكة ومقاييسها خاصة. فهو علم بكيفية وليس نفس كيفية"[34]، وهذا التفريق الذي ذكره ابن خلدون بين الملكة اللغوية وصناعة العربية فتح الباب أمامه للاقتراب من تعريف تشومسكي للكفاية اللغوية والأداء اللغوي؛ فالكفاية اللغوية عند تشومسكي هي المعرفة الضمنية غير الشعورية بقوانين اللغة التي تمكن الإنسان من إنتاج الجمل وفهمها[35] ، وهذه الكفاية تختلف طبعاً عن الأداء اللغوي أو صناعة العربية؛ ويشرح ابن خلدون ذلك الفرق قائلاً "وكذلك نجد كثيراً من جهابذة النحاة والمهرة في صناعة العربية المحيطين علماً بتلك القوانين، إذا سئل في كتابة سطرين إلى أخيه أو ذي مودته أو شكوى ظلامة أو قصد من قصوده، أخطأ فيها الصواب وأكثر من اللحن، ولم يجد تأليف الكلام لذلك والعبارة عن المقصود فيه على أساليب اللسان العربي، وكذلك نجد كثيراً ممن يحسن هذه الملكة ويجيد الفنين من المنظور والمنثور، وهو لا يحسن إعراب الفاعل من المفعول، ولا المرفوع من المجرور ولا شيئاً من قوانين صناعة العربية"[36]، وبذلك نجد ابن خلدون يقدم تفسيراً أفضل لملكة الأداء اللغوية يجمع فيه بين الكفاية اللغوية البحتة حسبما

---

[33] محمد عيد، الملكة اللسانية في نظر ابن خلدون، ص163

[34] عبد الرحمن ابن خلدون ، المقدمة ، ص 636.

[35] محمد عيد، الملكة اللسانية في نظر ابن خلدون، ص169

[36] عبد الرحمن ابن خلدون ، المقدمة ، ص637.

عرضها تشومسكي والكفاية اللغوية الاتصالية؛ وهي مقدرة متحدث اللغة علي تنويع استعماله لها بحسب تنوع سياق الحال، وفي هذا يقول ابن خلدون "..فإن كلامهم –العرب– واسع، ولكل مقام عندهم مقال يختص به بعد كمال الإعراب والإبانة "[37]، وفي ذلك أيضاً دلالة على أهمية دور السياق في اللغة عند ابن خلدون مثله في ذلك مثل أصحاب النظرية التفاعلية[38] ؛ الذين يرون أن الناس الذين ينتمون إلى ثقافات مختلفة قد يشتركون في معرفة نحوية واحدة للغة، ولكن معنى كلامهم يختلف حسب السياق الذي يقال فيه ذلك الكلام.

أما من حيث عملية اكتساب اللغة فيقول ابن خلدون إنها تتم من خلال الترعرع في بيئة اللغة، ومن خلال سماع كلام المجتمع الذي يتحدثها، حيث يقول "إن الإنسان يسمع كلام أهل جيله وأساليبهم في مخاطباتهم وكيفية تعبيرهم عن مقاصدهم، كما يسمع الصبي استعمال المفردات في معانيها، فيلقنها أولاً ثم يسمع التراكيب فيلقنها كذلك، ثم لا يزال سماعه لذلك يتجدد في كل لحظة، ومن كل متكلم واستعماله يتكرر إلى أن يصير ذلك ملكة وصفة راسخة ويكون كأحدهم"[39]، و كلام ابن خلدون هذا يشير إلى أهمية الدخل اللغوي في اكتساب اللغة كما ذكر أصحاب النظرية التفاعلية؛ ذلك الدخل في نظر ابن خلدون هو سماع الكلام وأساليب التخاطب والتعبير عن المقاصد وتلقن المفردات والتراكيب، ولكن ابن خلدون يركز على الممارسة والتكرار في أثناء عملية اكتساب اللغة، يقول "وإنما تحصل هذه الملكة بالممارسة والاعتياد والتكرار لكلام العرب" [40].

من ناحية أخرى نجد أن تعريف ابن خلدون للغة تعريف وظيفي حيث يقول "وهي عبارة المتكلم عن مقصوده"، وفي ذلك إشارة إلى أن الوظيفة الرئيسة للغة هي التواصل والعبارة ربما

---

[37] المصدر السابق، ص640.

[38] كعالم الاجتماع جوفمانGoffman ، وعالم الأنثروبولوجيا جمبيرز Gumperz

[39] عبد الرحمن ابن خلدون ، المقدمة ، ص631.

[40] عبد الرحمن ابن خلدون ، المقدمة ، ص636.

تأخذ صيغاً أو أشكالاً لغوية مختلفة، لذلك نجد علم التواصلية الحديث يركز على هذا الجانب في دراسة اللغة؛ وهو دراسة المعنى الذي يقصده المتكلم في سياق معين وعلاقة ذلك بالصيغ اللغوية المختلفة[41]، وقول ابن خلدون هذا سبق به الفيلسوف الانجليزي (أوستن Austin)[42]، عندما تحدث عن نظرية الحدث الكلامي عندما لاحظ أن العبارات اللغوية تؤدي الكثير من الوظائف كجزء من عملية التواصل بين الناس، يقول أوستن[43] إن الكثير من العبارات اللغوية لا يوصل معلومات، أي الإخبار عن حقيقة معينة فحسب، بل إن معظم العبارات يقصد باستخدامها إنجاز أفعال أو أحداث، لكن تلك العبارات تساوي أحداثاً، فعندما يقول شخص ما «أعتذر» فإن تلك العبارة توصل للسامع في الحال حقيقة نفسية أو اجتماعية حيث إن الاعتذار يحدث عندما يعتذر ذلك الشخص وليس قبل ذلك، لذا نجد أوستن يسمي تلك العبارات بالأفعال الإنجازية.

رابعا: منهج ابن خلدون في التحصيل اللغوي: إن ابن خلدون يرى أن هذه العملية هي عملية وجدانية حيث يقول "وهذا أمر وجداني حاصل بممارسة كلام العرب، حتى يصير واحداً منهم"[44]، ويفهم من ذلك أن ابن خلدون يتفق مع ما قاله أصحاب النظرية السلوكية[45] في اكتساب اللغة من حيث التركيز على الممارسة والتكرار وأهمية دور البيئة، وأيضاً يتفق

---

[41]عبد السلام المسدي، التفكير اللساني في الحضارة العربية، الدار العربية للكتاب، ليبيا وتونس، 1981، ص218.

[42]المتوفى عام 1960.

[43]نايف خرما، أضواء على الدراسات اللغوية المعاصرة , سلسلة عالم المعرفة ، الكويت ، ط2، 1979، ص208 .

[44]عبد الرحمن ابن خلدون ، المقدمة ، ص638.

[45] مثل سكنر Skinner .

مع تشومسكي من حيث إن عملية اكتساب اللغة أمر وجداني ذهني. وبذلك يقف موقفاً متوسطاً بين الاثنين.

ولعل موقف ابن خلدون هذا من اكتساب اللغة يقترب بعض الشيء من موقف النظرية التفاعلية؛ التي ترى أن اكتساب اللغة لدى الطفل هو تفاعل معقد بين الصفات البشرية التي ينفرد بها الطفل، والبيئة التي ينمو فيها مشيرة إلى أهمية الدخل اللغوي، لكنه يرى أن ذلك الاكتساب يرسخ بالحفظ والاستعمال حيث يقول " فتحصل له (الطفل) هذه الملكة بهذا الحفظ والاستعمال، ويزداد بكثرتهما رسوخاً وقوة"[46].

أما فيما يخص تعليم اللغة الثانية فيرى ابن خلدون أن ذلك ممكن لكن يشوبه بعض النقص وعدم الكمال مهما بلغت درجة إتقان الإنسان للغة الثانية، يقول ابن خلدون "إن الملكة إذا سبقتها ملكة أخرى في المحل، فلا تحصل إلا ناقصة مخدوشة"، ويمثل ابن خلدون لذلك بقوله "وانظر من تقدم له شيء من العجمة، كيف يكون قاصراً في اللسان العربي أبدا فالأعجمي الذي سبقت له اللغة الفارسية لا يستولي على ملكة اللسان العربي، ولا يزال قاصراً فيه ولو تعلمه وعلمه، وكذلك البربري والرومي والإفرنجي قل أن تجد أحداً منهم محكماً لملكة اللسان العربي، وما ذلك إلا لما سبق إلى ألسنتهم من ملكة اللسان الآخر"[47]. وقول ابن خلدون هذا يقترب كثيرا من فكرة اللغة البينية أو الوسيطة التي جاء بها (سلينكر Selinker) ؛ لوصف لغة متعلم اللغة الثانية التي قد تحمل صفات من لغته الأم وصفات من لغته الثانية، وبعض صفات عامة توجد في جميع أو معظم منظومات اللغة البينية أو الوسيطة[48]، فعند ابن خلدون أن نفس الإنسان لا تتسع لأكثر من ملكة لسانية كاملة واحدة، بينما تظل الأخرى ناقصة ومخدوشة، ولكنه يستثني من ذلك الأشخاص ثنائيي اللغة أو متعددي اللغات الذين

---

[46]عبد الرحمن ابن خلدون ، المقدمة ، ص600.

[47]المصدر نفسه، ص638.

[48]نايف خرما، أضواء على الدراسات اللغوية المعاصرة , ص168.

تعلموها في آن واحد خلال طفولتهم، حيث يقول ابن خلدون "من كان على الفطرة كان أسهل لقبول الملكات وأحسن استعداداً لحصولها"[49]، ويوضح ذلك قائلاً:"كأصاغر أبناء العجم الذين يربون مع العرب قبل أن تستحكم عجمتهم، فتكون اللغة العربية كأنها السابقة لهم"[50]؛ ومعنى هذا أن ابن خلدون يشير هنا ضمناً إلى وجود فترة معينة ومحددة لإمكانية إتقان اللغة الثنائية، وتسمى أيضا من قبل اللغويين بالوضعية (سوسيو–لغوية)[51]، ويمكن لهذه الثنائية اللغوية أن لا تمس إلاّ جزءاً فقط من طائفة معنية، وتسمى أيضا بالازدواجية المركّبة حيث يملك الفرد نظاما متّحدا أو مدموجا، فيسلك سلوك المتحدّث الأصلي في أيّ من اللّغتين،

وفي جانب آخر نجد ابن خلدون قد فطن إلى الفرق بين التعلم والاكتساب للغة حيث يرى أن الاكتساب هو الذي يؤدي إلى حصول الملكة اللغوية، وليس التعلم الذي ينتج عن تعلم قوانين اللغة حيث يقول " وهذه الملكة كما تقدم تحصل بممارسة كلام العرب وتكرره على السمع والتفطن لخواص تركيبه، وليست تحصل بمعرفة القوانين العلمية في ذلك، التي استنبطها أهل صناعة البيان. فإن القوانين إنما تفيد علماً بذلك اللسان ولا تفيد حصول الملكة في محلها"[52]، وهذا رأي شديد الشبه برأي(كراشنKrashen)الذي يرى "أن الاكتساب أو اللغة المكتسبة هي التي تؤدي إلى الاتصال الطبيعي الطلق، أما التعلم فليس بالإمكان أن يتحول إلى اكتساب"[53] ويستشهد على ذلك بأمثلة كثيرة من الناس الذين تمكنوا من إتقان لغة ما دون أن يتعلموا قوانينها، بينما أن هناك أناسا كثيرين يعرفون تلك القوانين،ولكنهم

---

[49]عبد الرحمن ابن خلدون ، المقدمة ، ص 621.

[50]نفسه، ص640.

[51] نور الدين النيفر فلسفة اللغة واللسانيات، ط1، مؤسسة أبو وجدان للطبع والنشر والتوزيع، 1993 ، ص167 .

[52]عبد الرحمن ابن خلدون ، المقدمة ، ص632.

[53]نايف خرما، أضواء على الدراسات اللغوية المعاصرة , ص256.

يستمرون في الخطأ فيها عندما يركزون انتباههم على المعنى الذي يودون توصيله إلى من يتحدثون إليه، وذلك بدلاً من التركيز على التطبيق السليم لتلك القوانين من أجل تحقيق أداء دقيق وصحيح في تلك اللغة التي يتحدثون بها.

خاتمة ونتائج: إن ابن خلدون وإن عاش في القرن الثامن الهجري، إلا أنه جاء بآراء متطورة عن اللغة واكتسابها؛ وأكبر شاهد على ذلك ما قاله ابن خلدون عن تعريف اللغة ذاتها؛ يقول: " وأعلم أن اللغة، في المتعارف عليه، هي عبارة المتكلم عن مقصوده وتلك العبارة فعل لساني ناشئ عن القصد بإفادة الكلام، فلابد أن تصير ملكة متقررة في العضو الفاعل وهو اللسان، وهو في كل أمة بحسب اصطلاحاتها"[54]، لقد أوضح لنا ابن خلدون في مقدمته ثلاثة عناصر تفيد في تعلم اللسان وهي : البحث في شواهد اللسان وتراكيبه، ثم أهمية المران والممارسة في عملية التعلم ، ثم ضرورة التمييز بين الوسيلة والغاية إن التعليم اللغوي في نظر ابن خلدون وفي نظر كثير من الألسنيين التربويين لا يجدي نفعاً بدون التطبيق العملي، إذ يصبح التعليم اللغوي بدونه تنظيراً لا أثر له على المتعلم. ونحن إنما نريد وعياً باستعمال اللغة الاستعمال الصحيح ، لذلك يجب أن يخصص غالب وقت التعليم في تمرين التلميذ على استعمال اللغة وتقوية ملكته اللغوية وتنويع أساليب تعبيره، ولعل معرفة ابن خلدون بعلم الاجتماع وإسهاماته الرائدة فيه جعلته ينظر إلى اللغة ويعرّفها من منظور ذلك العلم، لذلك جاء تعريفه للغة من ذلك المنطلق، ويفهم هذا من قوله " وهي في كل أمة بحسب اصطلاحاتها"، وبذلك يكون ابن خلدون قد نبّه إلى العلاقة بين اللغة والمجتمع أو الأمة، وهو ما يعرف الآن بحقل علم اللغة الاجتماعي الذي يهتم بدراسة هذه العلاقة بين استخدامات اللغة والبنى الاجتماعية التي يعيش فيها مستخدمو اللغة.

مصادر ومراجع البحث

[54]عبد الرحمن ابن خلدون ، المقدمة ، ص610.

1-عبد الرحمن ابن خلدون، المقدمة، دار الفكر، بيروت، ط1، 2004م.
2-إبراهيم عطا، طرق تدريس اللغة العربية، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، 1407هـ.
3-أحمد حساني، دراسات في اللسانيات التطبيقية: حقل تعليمية اللغات، الديوان الوطني للمطبوعات الجامعية، الجزائر، د.ت.
4-أحمد محمد المعتوق، الحصيلة اللغوية، سلسلة عالم المعرفة 212، الكويت، آب1996 .
5-عبد الجليل مرتاض، اللغة والتواصل اقترابات لسانية للتواصلين الشفهي والكتابي، دار هومة ، الجزائر، د.ت.
6-عبد السلام المسدي، التفكير اللساني في الحضارة العربية، الدار العربية للكتاب، ليبيا وتونس، 1981.
7-عبد الصبور شاهين، في علم اللغة العام، ط3 ، 1980 ، مؤسسة الرسالة بيروت.
8-فتحي يونس وآخرون، المناهج الأسس المكونات التنظيمات التطوير، دار الفكر، الأردن، 2004م .
9-مارك ريشل، اكتساب اللغة، ترجمة: كمال بكداش، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع ، بيروت، لبنان،ط1، 1984م .
10-محمد عنان، ابن خلدون حياته وتراثه الفكري، القاهرة، مطبعة دار الكتب المصرية 1933.
11-محمد عيد، الملكة اللسانية في نظر ابن خلدون، عالم الكتب ، القاهرة ، 1979.
12-محمود السمان، التوجيه في تدريس العربية، دار المعارف، القاهرة، 1983م.
13-ميشال زكريا، المَلكة اللسانية في مقدمة ابن خلدون، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر، بيروت، 1986.
14-نايف خرما، أضواء على الدراسات اللغوية المعاصرة، سلسلة عالم المعرفة، الكويت ط2، 1979.
15-نور الدين النيفر، فلسفة اللغة واللسانيات، ط1، مؤسسة أبو وجدان للطبع والنشر والتوزيع، 1993.